حكايات من القرآن

٦

طاغية المال قارون

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

في طَرِيقِ العَوْدةِ من المدرسةِ ، قالتْ (بُشْرى) لأخوَيْها (خالد وطارق): لماذَا لا نَطْلُبُ من جَدِّي أن يَحْكِيَ لنا أكثرَ من حِكايةٍ في اليومِ الواحدِ؟

قال (طارقٌ): ولكنْ لِمَ ذلك ؟

قالتْ (بُشْرى): إنِّي أخافُ إن تَماثَلَ جَدِّي للشِّفاءِ تماماً ، أن يَشْتاقَ إلى دِمشقَ ، فَيُقَرِّر العودةَ فَوْراً..!!

.. وهَكَذا اتَّفَقَ الأولادُ على أن يَطْلُبوا من جَدِّهم ذلك ..

وعلى مائِدةِ الغَداءِ ... هَمَستْ (بُشْرى) في أُذُن جَدِّها: لماذا لا تَحْكِي لنا أكثرَ من حِكايةٍ في اليوم..؟

..واجْتَمَعَ الأولادُ حولَ جَدِّهم .. وراحُوا يُقَبِّلُون وَجْهَه .. ويُلِحُّون عليه بذلكَ..

قالتْ (أمُّ خالدٍ) لِزَوْجها: ماذا يُرِيدُ الأطفالُ من جَدِّهم؟ ولماذا لا يَتْرُكُونه خَوْفاً عليه من التَّعبِ والإرْهاقِ؟

.. رَفَعَ الشَّيخُ صوتَه وهو يقولُ: وعندما تُقَدِّمُ لنا أُمُّكم الشَّايَ بالنَّعناعِ فَسَأَحْكِي لكمُ الحِكايةَ...

...وانطلقتْ (أمُّ خالدٍ) إلى المَطْبخِ لتحضِّرَ الشَّايَ بالنَّعناعِ.. بينما ذهبَ الأولادُ إلى حيثُ يَغسلُون أيديهم ووجوهَهم ...

وبعدَ قَليلٍ أَحْضَرَتْ (أمُّ خالد) الشَّايَ ووضَعَتْه على طاولةِ الصَّالُون ، ثم دَعَتِ الجَدَّ والزَّوجَ والأولادَ للجلوسِ في صَالُونِ المنزلِ، والاسْتِماعِ إلى الحِكايةِ الجَديدةِ من الجَدِّ العَزِيزِ، ولتناولِ الشَّاي أيضاً..

لكنَّ الجَدَّ اقْتَرحَ اقْتِراحاً آخرَ: لماذا لا نأخُذُ الشَّايَ ، ونجلسُ تحتَ أشجارِ الحَديقةِ ، لنشمَّ روائحَ الوُرودِ والزُّهورِ ، ولنسمعَ أصواتَ الطُّيورِ.. ولنعيشَ في أَحْضانِ الطَّبيعةِ...أَلاَ يكفينا التَّلوُّثُ الذي نَراهُ في كُلِّ مكانٍ؟!

حَقّاً يا والدي - قال (أبو خالد) - فالجلوسُ بينَ الزُّروعِ والأَشْجارِ يردُّ الرُّوحَ ، وَيُنَشِّطُ الإنسانَ ويُعِيدُ إليه كُلَّ حَيَويَّته.

حَمَلَ (خالدٌ) حَصِيرةً خَضْراءَ ، وحَملتْ (بُشْرى) إبريقَ الماءِ مع كأسٍ كبيرةٍ..

وانطلقتْ (أمُّ خالدٍ) باتِّجاهِ الشَّجرةِ الكَبِيرةِ في أَقْصى البُسْتانِ...

فلمَّا جَلَسُوا قالتْ (بُشْرى): إذاً فلنستمعْ إلى حِكايةِ جَدِّنا...

بِداياتُ قَارُونَ!!

... جلسَ الجَدُّ على الحَصِيرِ ، وجَلَسَ حَوْلَه الأطفالُ ، بينما راحتْ (أمُّ خالدٍ) تسكبُ الشَّايَ في الكاساتِ... ثُمَّ قالَ الجَدُّ: والآنَ نَبْتَدِئُ حِكايَتنا القُرْآنيةَ الجَدِيدةَ:

كانَ يا ما كانَ.. كانَ في قَدِيمِ الزَّمانِ رَجُلٌ يُدْعى (قارون)..وهُو من أَقْرِباءِ نَبيِّ اللهِ موسى عليه السَّلامُ.

..ولمَّا أصبحَ (قارونُ) شابّاً قويّاً.. نَظَرَ إلى الَّذينَ يتَّبعُون موسى عليه السَّلامُ فَوَجَدَ أن غالبيَّتَهُم لا يَجِدُ ما يَأْكُلُه!!

والتفتَ إلى أَتْباعِ فِرْعَوْن ـ حاكمِ مِصْرَ آنئذٍ ـ فوجدَ أنَّ غالبيتهم يعيشُ التَّرفَ كُلَّه!!

..فما كانَ من (قارون) إلا أنْ تَرَكَ موسى ،

وانْخَرطَ في صُفُوفِ المَدَّاحينِ والمُقَرَّبِينَ من فِرْعَوْنَ...

عندَ ذلك أتتْ فِتْنةُ المالِ.. وما أسوأَ المالَ إنْ كان للطُّغيانِ وحُبِّ الاسْتِعلاءِ على الآخَرِين!!

..وتعامَلَ مَعَ فِرْعونَ وأَعْوانِه.. ومارسَ كُلَّ الحِيَلِ والخِداعِ.

لذلك كُلِّه تجمَّعَ في صَنادِيْقِه الحَدِيديَّةِ الذَّهَبُ والفِضَّةُ ، حتَّى قالَ العُلماءُ: إنَّ مَفَاتيحَ الصَّناديقِ عنده تَعْجزُ عن حَمْلها ثُلَّةٌ من الشَّبابِ الأَقْوياءِ..

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾.

تابَعَ الجَدُّ حِكايَتَهُ:

..وبدلَ أن يَشْكُرَ (قارونُ) ربَّه الذي أَعْطاهُ هذه النِّعَمَ الكثيرةَ.. وبَدَلَ أن يُساعِدَ الفُقَراءَ والمَساكينَ.. وبدلَ أن يُساهِمَ في المَشَاريعِ الخَيريَّةِ ، إذا به يَطْغَى بالمالِ ويتكبَّرُ.. وينظرُ إلى

عِبادِ الله نَظْرةً دُونِيَّةً ، فيها الكثيرُ مِنَ الاسْتِهْزَاءِ.

..وجاءَ المُصْلحُون وعلى رأسِهم نبيُّ الله موسى عليه السَّلامُ...

قَدَّمُوا له النَّصائِحَ قَائِلينَ: يا قارونُ! ألا تَذْكُر بِداياتِكَ.. وكيف كنْتَ رجلاً عادياً فَقِيراً.. يا قارونُ! أَلا تَشْكُرُ اللهَ وتَحْمَدُه؟! يا قارونُ لا تفرحْ فَرَحاً تتكبَّرُ من خِلالهِ على عِبادِ الله!

..لكنْ ـ يا جَدِّي ـ يسألُ (طارق) ـ: هَلِ اسْتَجابَ (قارونُ) لذلك؟

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾

أبداً ، إنَّما كان في حالة السُّكْرِ والنَّشْوةِ.. فهو يَضْحَكُ ضَحِكاتِ اللامبالي.. ويلتفتُ إلى موسى ـ عليه السَّلامُ ـ ومَنْ معه.. فيسخرُ منهم ، قائِلاً لهم: وماذا تَمْلِكُونَ أنتُمْ حتَّى تَأْتُوا إليَّ وتُكَلِّمُوني؟!

..وتقدَّم موسى عليه السَّلامُ منه ، وأرادَ أن يُوقِظَهُ من هذا الضَّلال والذُّهُولِ.. فقال له: يا قارونُ! إنَّ الله لم يُحَرِّمْ جَمْعَ الأَمْوالِ.. ولم يُحَرِّمِ الاسْتِمتاعَ بالطَّيِّبات.. لكنَّ اللهَ يُرِيدُ من الإنسانِ أن يعيشَ للدُّنيا والآخِرةِ ، فيكونُ في الدُّنيا.. وفي الوقتِ ذاتِه تكونُ مُراقَبَتهُ لله.. وتكونُ آمالُهُ وطُمُوحاتُه بما عِندَ اللهِ سُبْحانه وتعالى..

يا قَارونُ! لا تتكبَّرْ على عِبادِ الله.. ولا تُبَذِّرِ الأَمْوَالَ التي أَعْطَاكَ إيَّاها اللهُ سُبْحانه.. ولا تَجْعَلْ من نَفْسك إماماً للشَّرِّ والفَسادِ.. فاللهُ لايُحِبُّ الذين يَفْرَحُونَ بالفسادِ وانْتِشارِ الضَّلالِ...

..ويَسْتأذِنُ (أبو خالد) والدَه ليقرأَ بعضَ آياتٍ من القُرْآنِ الكريمِ:

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ

ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٧٧].

لكنَّني جَمَعْتُ المالَ بذكائي!!

تابعَ الجَدُّ حِكايَتَهُ الجَميلةَ:

.. وكأنَّ (قارونُ) لم يَسْمعْ ذلك كُلَّه! وكأنَّ أُذُنيه قد أُغْلِقَتا تَماماً!!

وعاودَ موسى عليه السَّلامُ المَواعِظَ.. وذَكَّرَهُ بالأقوام السَّابقةِ التي دَمَّرها اللهُ تعالى، على الرَّغْمِ من أنَّها كانتْ أَقْوى من (قارونَ).. وذلك عندما تكبَّروا وطَغَوْا في الأَرْضِ..

..غَضِبَ (قارونُ) من كلامِ مُوسى عليه السَّلامُ.. ثم تَحَرَّكَ ذاتَ اليمينَ وذاتَ الشِّمالِ.. ثمَّ قالَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ:

يا مُوسى! لقد تَعِبْتُ وشَقيْتُ في جَمْعِ المالِ! ولا دَخْلَ لربِّك بذلكَ!

فأنَا اسْتَخْدمْتُ عِلْمي وذَكائِي لِتَحْقيقِ هذه الثَّورةِ.. فلماذا تَقُولُ لي: احْمدِ اللهَ واشْكُرْهُ؟!

يا مُوسى! لقد عَمِلْتُ في أُمُورِ الكيمياءِ.. وهذا سِرٌّ لا يَعْرِفُه إلا قليلٌ من النَّاس ، وتقرَّبْتُ من فِرْعَوْن.. حتَّى اسْتفدتُ ذلك كلَّه.. وأنا لا أعتقدُ بوجودِ يومِ قِيامةٍ ، لذلك لا تُتْعِبْ نَفْسَكَ في الحديثِ معي ، فَميْزاني هنا: قُل لي ماذا تَمْلِكُ ، أَقُلْ لك ماقِيْمَتُكَ!!

﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ﴾

..وفي اليومِ الثَّاني أرادَ (قارونُ) أن يَسْتَعْرِضَ أمامَ النَّاسِ مِقْدارَ مُمْتَلَكاتِه..

..فخرجَ في مَوْكبٍ ضَخْمٍ مَهِيبٍ.. حيثُ كانَ

يلبسُ أَفْخَرَ الثِّيابِ.. وكانَتْ بينَ يديه الجَواهرُ ، والجَواري والخَدَمُ والحَشَمُ يُحِيْطُون به من كُلِّ جانِبٍ.. والنَّاسُ يَصْطَفُّون على اليمينِ وعلى الشِّمالِ .. و(قارونُ) يَتَبَخْتَرُ بينهم.. ولسانُ حِالهِ يقولُ:

لا أحدَ يَمْلِكُ مِقْدارَ ثَرْوتي.. فأنا مُسْتَغْنٍ عن اللهِ...!!

إنَّه اسْتِعراضٌ رهيبٌ لِفُنونِ التَّرفِ .

..قالتْ (بُشْرى): وماذا فَعَلَ النَّاسُ أمامَ هذا الاسْتِعْراضِ؟

..نَعَمْ يا أَحِبَّائي ـ قال الجَدُّ ـ انْقَسَمَ النَّاسُ فَريقَيْن:

فريقٌ أوَّلُ تَمَنَّوَا أن تكونَ الأموالُ لهم.. ليعيشُوا من خِلالِها كما يُرِيْدُونَ..

لذلكَ عندما رَأَوْا ذلك التَّرفَ قالُوا: ليتَ اللهَ

أَعْطانا ولو جُزْءاً صَغِيراً من ثَرْوةِ (قارونَ).. ما أتعسَ عِيْشَتِنا في هذ الفَقْرِ المُدْقِعِ.. انْظُروا إلى هذا المَوْكبِ!!

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

[القصص: ٧٩].

لكنْ يا جَدِّي ـ يسألُ (طارق) ـ وماذا كانَ مَوْقِفُ موسى عليه السَّلامُ ومَنْ مَعَهُ؟

تابَعَ الجَدُّ قولَه:

وأمَّا الفَريقُ الثَّاني: أهلُ العِلْم والصَّلاحِ، أولئكم الَّذينَ يَنْظُرونَ بِنُورِ الله فَيَرَوْنَ الأشياءَ على حَقَائِقِها.. ، والَّذين لا يَنْخَدِعُون بِزَخَارِفِ الدُّنيا، هؤلاء قالُوا:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾

[القصص: ٨٠].

وشَتّانَ شَتَّان بين الفَرِيقَيْنِ..

قال (أبو خالدٍ): أَجَلْ.. فالفَريقُ الأوَّلُ تَمَنَّى أن يَرِثَ كلَّ مَلَكُوتِ قارونَ ، بينما الفريقُ الثَّاني لم ينخدعْ بذلك كُلِّه.. بل كان خيرَ ناصِحٍ أمينٍ لقارونَ ومِمَّنِ انْخَدَعَ معه..

وهل يَنْفعُ النَّدمُ والحَسْرَةُ؟!

سألتْ (أمُّ خالد): فكيفَ كانتْ نِهايةُ (قارونَ)؟

قال (الشَّيخُ حُسين): كَنِهايةِ كُلِّ مُجْرمي التَّاريخ.. فبعد أنِ انْتَهى الاسْتِعْراضُ ، وعادَ كُلُّ واحدٍ إلى بَيْتِهِ.. بينما عادَ (قارونُ) إلى بيتِه ليُعيدَ الذَّهبَ والفِضَّةَ إلى صَناديقِ قَصْرِه.

..ورَقَدَ النَّاسُ رَقْدَةَ النَّومِ، وفَجْأةً، وفي مُنْتَصَفِ الليلِ.. هَبَّ الناسُ مَذْعُورين مُضْطَّربينَ.. خائِفينَ قَلِقين.. قال بَعْضُهم: يا إلهي! هل قامَتِ

القيامةُ؟ هل حَدَثَتْ هزَّاتٌ وزَلازلُ؟

..أجـلْ.. لقـد انْشَقَّـتِ الأرضُ تَحْـتَ قَصْـرِ (قـارونَ).. ليهـوي قَـارونُ وكُـلُّ مـايَمْلِـكُ مـن قُصُورٍ..وأَمْوالٍ في أَعْماقِ الأرضِ..

وانْطَلقَ النَّاسُ إلى المكان.. فَلمَّا رَأَوْا ذلك قالَ أَحَدُهم: إنَّها قُوَّةُ اللهِ وقُدْرَتُه.. فأينَ قارونُ وما يَمْلِكُ؟!

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾

[القصص: ٨١].

ولمَّا رأى الفريقُ الأوَّلُ ماحَدَثَ له ، شَكَرُوا اللهَ وحَمدُوهُ بأنَّه لم يَجْعلْهم معه.. وإلا كانُوا من المُغْرَقِينَ الكافِرينَ:

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ

عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢].

..وهَكَذا يا أحبَّتِي.. أصبحَ (قارونُ) رَمْزاً من رُمُوزِ الذين أَطْغاهُمُ المالُ ، فَهَنيئاً لمنِ اسْتفَادَ من قصصِ غَيْرِه واعْتَبَر ، والويلُ الويلُ لمن لم يَعْتَبرْ ويَتَّعِظْ:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

اللهمَّ اجْعَلْنا منهمْ يا أكرمَ الأَكْرَمِينَ..

وشَكَر الجميعُ الجَدَّ على هَذِه الحِكايةِ..

وانْطَلقَ الأولادُ إلى حِفْظِ دُرُوسِهم وكِتابةِ وظَائِفِهمْ.. وهُمْ على أَمَلِ اللِّقاءِ مَعَ قِصَّةٍ جَدِيدةٍ...

والحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ